الأخبار
al-akhbar

رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
مدير التحرير: وفيق قانصوه
مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
صادرة عن شركة اخبار بيروت
المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
تلفاكس: 01759500 01759597
ص.ب 113/5963
الإعلانات: الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
التوزيع: شركة الأوائل 01/666314ـ15 ـ 03 / 828381
الموقع الالكتروني: www.al-akhbar.com
صفحات التواصل: /AlakhbarNews @AlakhbarNews /alakhbarnews-paper

ذكرى

الفقيه الإنسان
حضورٌ .. أقوى من الغياب

محمد عبدالله فضل الله *

أن تستعيد الحديث عن الكبار فذلك شيء صعب وإن كانوا يتقاسمون معك ذاكرتك الجميلة، فليس الجانب العاطفي حصراً يترك بصماته بقدر ما شكّلوه من وعيك في مواقفهم وحركتهم وسيرتهم، وما تركوه من رمزية تحاول تثبيت ما لدى الجماعة من قيم. لقد دفع المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله بالحركة الإسلامية والعمل الإسلامي منذ خمسينات القرن الماضي إلى صدارة الساحة السياسية والفكرية العملية تنظيراً وسلوكاً وحركة، حيث بلغت أوجها من الثمانينات والتسعينات حتى عام 2010، تاركاً بصماته على كثير من الأحزاب والمنظّمات الإسلامية وغير الإسلامية لما تميّز به خطابه من انفتاح واستشراف للقضايا والأحداث في لبنان والعالم.

هي الذكرى التاسعة لرحيله، تفتقده الساحات الفكرية والجهادية والفتوائية والجلسات العلمية المتنقلة من مكان إلى آخر على طول الوطن وعرضه، مغواراً بالكلمة والموقف ومفكّراً ومنظّراً إسلامياً وإنسانياً من الطراز الرفيع ومحاوراً فذّاً ومُلهماً شعبيّاً، يسكن في القلوب متسلّلاً إليها بحذاقة عبر تقنية لغوية سلسة تشدّ الكبير والصغير والعالم والمتعلّم، تاركة تأثيرها في كل القابليات بعيداً من اللغة المزخرفة والجافة. قدّم السيد فضل الله للعالم إسلاماً حضارياً منفتحاً.

> عمل على إخراج الخطاب الإسلامي من التجريد والتنظير إلى الممارسة العملية في الواقع

على الرغم من مرور هذه السنوات على رحيله لا تزال مؤسّساته عاملة في ظلّ أوضاع ضاغطة ومحاولات لتغييب دورها أو تهميشه، نذكر من هذه المؤسسات المكتب الشرعي الذي يتلقى كثافة من الأسئلة والاستفتاءات من الداخل والخارج، مجيباً عليها ضمن الموازين الشرعية التي تؤكد العلاقة الحيّة مع فكر السيد فضل الله وانجذاب الناس إليه حتى اليوم.

أن تلمّ بأبعاد هذا الشخصية المتنوعة في عطاءاتها ونضالها، فهذا يحتاج إلى الكثير من الكلام ولكن نعرّج على بعض إسهاماته في مجال السياسة، فقد يظنّ البعض أن عالم الدين لا شأن له في السياسة، ولكن السيد فضل الله أعطى للسياسة ديناً ومذهباً جديداً له معالمه ورونقه.

لقد منح لمفهوم الأنسنة مثلاً حضوراً وقوّة تحوي كل التجارب البشرية وخبراتها، الناظرة إلى الجدل حتى على مستوى الساحة الواحدة (الإسلامية) كعملية طبيعية تقتحم الحياة في أكثر من موقع وأكثر من أسلوب، متوخية الوسيلة الفضلى في الوصول إلى الهدف الكبير. كل ذلك عبر وعي المصطلحات وتبسيطها لتحريك هذه المفردات في خدمة الواقع والجماهير. أنت تقرأ وتستنتج من فكره السياسي العملي أنّ الأخلاق والعدل ليسا بديلاً عن الحرية والديمقراطية، بل هما في غايتهما خدمة للإنسان وسلامة كرامته وإن تبدّلت المصطلحات والأسماء، لكن الجوهر واحد في قيمته، في زمن يفرّغ فيه الإنسان من كل توجّه نحو الحرية والعدل لصالح منطق الجشع والانتهازية والاستغلال والتسليع، إذ قلّما تعثر على عدل وحرية قد حافظا على صفائهما من أية حسابات، فالحاكمية للذات والوجود للإنسان تتقدم على ما سواها خلا مجتمعاتنا.

لقد آمن بتحديث الذات من داخلها في عملية توازن بين لحظاتها عن وعي وأصالة، بعيداً عن الاستهلاك والاستغراق في عصر المظاهر المادية وحتى الثقافية، وبدل أن يكون التحديث منطلقاً من ذواتنا إلى ذواتنا، أصبح هشّاً يعاني من التبعية أولاً لذواتنا المستغرقة في حساباتها الشخصية والجماعية والحزبية، وثانياً لما يستورد من أفكار وثقافات لا نكلّف أنفسنا عناء غربلتها، بل نتلقّاها بالقبول وكأننا في عصر التنزيل المقدّس...

قيمة الفكر السياسي أن يحرّك نظرياته انطلاقاً من الفهم الصحيح والواعي للمسائل السياسية والفكرية والاجتماعية والإنسانية المترابطة، لا أن يقدّم الفتاوى والطروحات الجاهزة لإضفاء الشرعية على الواقع بما فيه من تجاوزات، وإلا لأضحى شاهد زور فقدَ مصداقيته وحتى مشروعيته، فالله أراد للإنسان أن يكون حرّاً في تفكيره وإرادته وإدارته لشؤونه، ولكن الإنسان طغى وتجبّر وتوسّل أنانياته القاسية في تعامله مع كلّ شيء حتى مع قيمته ووجوده.

إن السياسة عنده مشروع تبشير وعمل أخلاقي وإنساني تخلق مزيداً من الصحوة والنهوض لكتابة تاريخ حيوي جامع خالٍ من التحيزات والاصطفافات، وليس كما يجري اليوم من تزييف للتاريخ وقتل للحقائق وتشويه للأحداث، وكأنّ كلّ طائفة وجهةٌ لها أمجادها التي تسقطها على تاريخ جماعي مُثقل بالانفعالات وتجميل الوقائع.

إن السياسة هي في حفظ التوازن الاجتماعي وعملية خلق لتاريخ مشرّف ضمن وعي جماهيري مسؤول ومؤثّر يمتلك رؤية وبرنامجاً عملياً للمواجهة، يتحرك وفق إحساسه بالأمانة والمسؤولية وليس كالقطعان التي يسوقها رعاة المذاهب والطوائف، لذلك عمل السيد فضل الله على إخراج الخطاب الإسلامي من التجريد والتنظير إلى الممارسة العملية في الواقع حركة ومواقف وسلوكيات متوجساً من الإسلاميين الذين يشكّلون عبئاً على الإسلام في فهمهم وتصرفاتهم.

لقد شكّلت تجربة المرجع الراحل، مرجعية اجتهادية فتحت الجدال حولها وحول آرائها الفقهية على رحاب وطن الإنسانية الكبير بما أحدثته من صدمة على صعيد التدين التقليدي، فالفتوى عنده لم تكن عملية إسقاط مصنَّعة من الأعلى، بل تُصنع من صخب الواقع وإشكالاته وتولد من رحمه، فلغة السماء لم تكن يوماً غريبة عن لغة الأرض، لغة لا تكلُّف فيها، بل التزام أخلاقي لا يحيد عن قضايا الحق. لغة تؤسس لتطلعات بعيدة تبني إنساناً بروح وعقل منفتحيْن بعيداً عن عقل جمعي أدمن السكن في الكهوف المظلمة، لأن المطلوب صوغ شخصية تمتلك خطّاً ولوناً وموقفاً ونهجاً وقراراً في وقت تتميز شخصية اليوم بالعبث والخواء وعدم التزام خط واضح، بل ما يميزها المزيد من التشوش والضياع والتبعية.

إننا في عصر ندير أظهرنا لكبارنا لا بل نحاصرهم بعصبياتنا وجهلنا في كثير من الأحيان متجاهلين ما صنعوه من تجارب غنية حتى أضحى من يكتب التاريخ الجماعي ويشكل الذاكرة الجماعية حفنة من المتأزلمين ومحتكري السياسة والدين، وهذه جريمة لا تُغتفر. يفتقد وطننا العربي والإسلامي لشخصيات كبيرة ومؤثرة إلّا ما رحم ربي، إذ نعيش اليوم عصر التصحر في الأسماء الكبيرة والمؤثرة التي تضبط إيقاع الحياة بخبرة وإبداع وحكمة، وأضحى أشباه الرجال يطغون على كلّ الساحات فلا موازين ولا ضوابط.

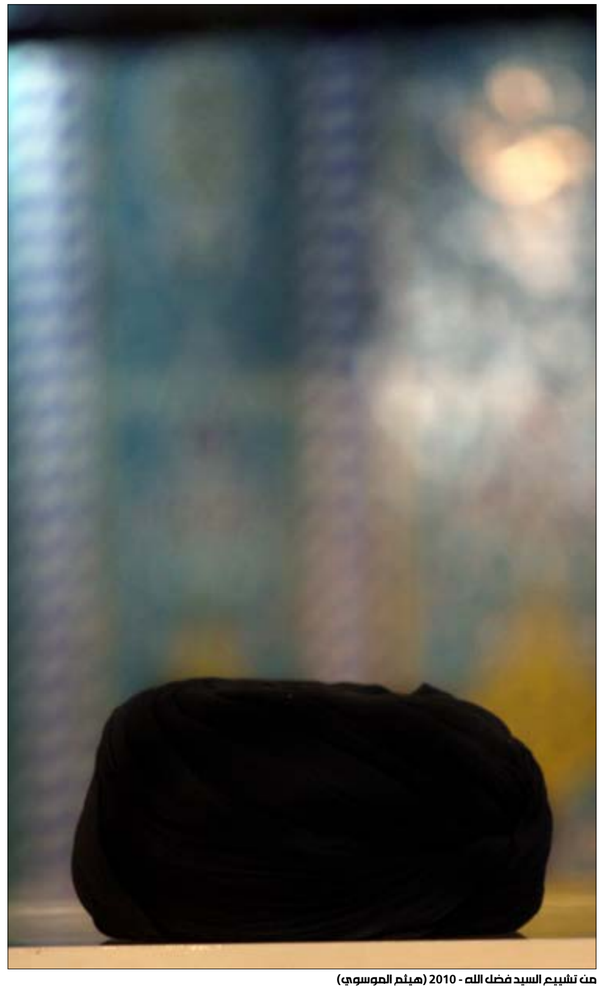

في أجواء هذه الذكرى لا بدّ لنا من أن ننتفض كأحرار كلٌّ في موقعه ونضغط باتجاه تنقية ما علق في أذهاننا من تبعية واصطفاف طائفي وأن يكتب تاريخنا الشرفاء ونظيفو الكف والضمير، وإلا سنبقى ندور في حلقة مفرغة ولن نصل بمجتمعنا وبلدنا إلى بر الأمان. المستعمر والمستكبر وأجهزة المخابرات الإقليمية والدولية وكثير من الغوغائيين والمنتفعين والرجعيين يخترقون بنيتنا في كل شيء وهم يتلاعبون بتناقضاتنا لتكريس ضعفنا وتعزيز سيطرتهم غير مكترثين بكل الفوضى والخراب، ألم يأن الأوان لمراجعة الحال وتأملها على الأقل؟!

* أكاديمي وحوزوي

من تشييع السيد فضل الله - 2010 (هيثم الموسوي)

العلّامة فضل الله و«استئناف» الفكر الإسلامي

جلال شريم *

كلّما مرّ طيف شخص في خاطري، فإنني أرى شريط حياته يبتدئ لحظة ولادته، وينتهي لحظة مماته، إلا العلّامة الراحل السيد محمد حسين فضل الله. فكلّما خطر ببالي فإنني أتذكره في آخر أيام عمره، وفي آخر لحظات حياته... يدور في وجداني شريط يعيد أمام ناظري ما حصل معه في تلك اللحظات حين كانت تتخطفه أيادي الموت، وكأني بجسده على الأرض، وروحه قد عانقت بارئها الأعلى.

وأذكر، أشد ما أذكر، ثلاث أفكار تهزّ كياني كلّما خطرت لي:

الأولى أنه غالب أشد لحظات الحرج، وهو على أعتاب الموت، ليقوم مؤدياً واجب الصلاة، ملبّياً نداء فطرته، مقدّماً لنا مثالاً عن الشخص الذي يتمسك بعقيدته، وينفذها فعلياً مهما اشتدت به الأحوال، ومهما طرقت طريقه الأهوال. ولن أطنب في الحديث عن هذه النقطة فهي تبقى أيضاً شأناً شخصياً، وعلاقة روحانية فردانية، بين المرء وخالقه. ولكن لنا منها تعلّم درس العزيمة والمثابرة.

الثانية أنه تلقّى طبعة ديوانه الشعري الجديد «في دروب السبعين»، وهي فكرة لها أبعاد متعددة، يعصى علينا الآن الإحاطة بها كلها. ولكن لنا، أولاً، ربطها بالفكرة السابقة حيث ضرورة العمل مهما ادلهمت الأيام، ومهما حلكت الظروف أمام طموحاتنا. ولنا منها ثانياً مدخل إلى عالم سماحته الموسوعي الفكري، الذي يشمل ميادين متعددة، تتجاوز صفته الأساسية كرجل دين. ولنا ثالثاً منها فهم لطبيعته الشاعرية السمحة الغنّاءة التي لا تضمر شراً ولا حقداً لأحد. ولنا منها حتماً الكثير أيضاً وأيضاً لكننا سنتوقف عند فكرة العلاقة بين رجل الدين والشاعر، وهي جوهر هذه الفكرة.

عندما نعلم أن جلّ علماء المسلمين، ومدوّني الكتب الإسلامية، هم من غير العرب، فإننا نعلم مدى الهوة الواقعة بين النص الديني، الذي هو عربي، وبين الفهم السائد له، والذي هو مكتوب بلسان «الأعاجم»، عند الشيعة والسنّة على حد سواء!

إن أواليات فهم النص تتباين تبعاً للتكوين الثقافي، والفكري، والمعرفي للذات المفكرة التي تحاول فهم هذا النص. وعليه فإن كون سماحته شاعراً مبرزاً، وما تتطلبه الشاعرية من إتقان للغة على المستوى السوسيو-ثقافي، أعطى له ميزة الفهم الحركي للنصوص الدينية مفترقاً عن غالبية الفقهاء الآخرين، ما ولّد، تمايزاً فكرياً ومعرفياً على المستوى الديني لسماحته، وصدمة فكرية وجّهها إلى ساحة الفكر الإسلامي الراكدة منذ زمن، وما واجهه من حملات وإساءات بسبب صدمه للعقليات التقليدية، وتسديد سهام المعرفة إلى هيكلهم المبني على صروح من الخرافات والأسطرة التاريخية للدين.

> صدمة فكرية وجّهها إلى ساحة الفكر الإسلامي الراكدة منذ زمن

بلغ توظيف سماحته لهذه الأوالية مداه الرحب في اعتباره النص القرآني هو المصدر التشريعي الأول، والحاكم على المصادر الأخرى، أي بمعنى آخر كان يرى ضرورة «تحكيم مرجعية الكتاب الكريم». وقد تسلح سماحته لذلك كما أسلفنا بذائقة أدبية شاعرية وبلاغة وسعة ثقافة مكّنته من الغوص في عالم القرآن، تلاوة وفهماً وتفسيراً واستنباطاً لكثير من المفاهيم والأحكام التي تخالف الروايات المتداولة. ضرب فضل الله بتلك الروايات عرض الحائط بدل العمل على «ترقيعها وتلفيقها».

طبعاً يقول المسلمون إن القرآن هو المصدر التشريعي الأول لكن الملاحظ على أرض الواقع هو تغييب هذا المصدر الإلهي لصالح الروايات التي كادت تشكل منظومتين دينيتين «طائفيتين» موازيتين للقرآن وما على «الكتاب» إلا تأكيدهما عبر التأويل واجتراح الرمزيات وتكبّد مشقات البحث عن البواطن!

والمنظومة الأولى هي المنظومة الروائية السائدة عند مذهب أهل السنّة والجماعة والتي بُنيت من خلال تعاقب السلطات الحاكمة، وهي منظومة من الأحاديث «السلطانية» التي تكرّس سلطة الحاكم وتضعه في مصاف «ولي الأمر، واجب الطاعة» مهما كانت طريقة حكمه، ومهما ارتكب من مخالفات وإساءات. مخالفة بذلك أبسط تعاليم القرآن بعدم الركون إلى الذين ظلموا، وضرورة الحكم بالقسط والعدل. هي منظومة تمجّد أيضاً المجتمع الإسلامي الأول، وتراه مثالياً بلا أية نقيصة، وتحاول «أسطرته» فوق السنن الطبيعية للمجتمعات، وفوق الكثير من النصوص القرآنية التي تعاملت معه بموضوعية، ونقلت ما يعتوره من هفوات مثل أي مجتمع إنساني ضمن سياق تحركه الطبيعي الذي لا بد أن يحتوي الصالح والطالح والحسن والسيئ.

أمّا المنظومة الثانية فهي المنظومة الروائية السائدة عند المسلمين الشيعة، التي تقابل المنظومة الأولى بمحاولة النظر إلى المجتمع الإسلامي الأول بعقلية اجتزائية فلا ترى إلا مثالبه، التي تضخمها عبر سلسلة روائية تخالف أبسط السنن كنظيرتها الأولى، وتجانب النص القرآني الذي ذكر حسنات هذا المجتمع وعوراته. وهي منظومة تستدعي أيضاً كمّاً هائلاً من الروايات في مناقب الأئمة، حتى الغلو الفاقع، وإلصاق الصفات الأسطورية بهم... بل وصل الأمر ببعض الروايات إلى فتح باب القول بصفات الأئمة «بما شئتم».

في مقابل هاتين المنظومتين يرى العلامة فضل الله أن النص القرآني هو المرجعية في الحكم على كل ذلك، وكل ما يخالف القرآن «هو زخرف نضرب به عرض الحائط». فليس دورنا أن نلوي عنق اللغة حتى تطاوعنا وتثبت ما نعتقد به، وليس دور القرآن أن «يفيض ببواطنه» كي يؤيد هذه الرواية أو تلك بل هو الحكم والقائد الذي يمثل «دور الأساس في ثقافتنا الإسلامية، من حيث كونه المصدر المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه» بحسب تعبير سماحته الذي تابع: «وإذا كان للقرآن الكريم هذا الدور الأصيل في ثقافتنا الإسلامية فلا بد أن يكون هو المصدر الأساس في مفاهيمنا في العقيدة والشريعة والحياة».

إذن هي «مرجعيّة القرآن» الفعلية والعملية حيث اعتبر العلّامة الراحل أنّ «القرآن لا يقتصر دوره على ترجيح الروايات المتعارضة فحسب، بل إنّ للبيان القرآنيّ عندما يكون وارداً مورد القاعدة، دور الحاكم على دلالة السنّة؛ لأنّ الأحاديث بأغلبها هي تطبيقات للآية القرآنيّة، وبالتّالي، تتحرّك دلالاتها سعةً وضيقاً . بسعة الدّلالة القرآنيَّة وضيقها».

كما وضع فضل الله في وجه ظاهرة التفلت والشطحات بحجة البحث عن البواطن، والغوص في الرمزيات والتأويلات، مجموعة شروط ومعايير ضابطة أهمها:

أولاً، أن يكون هناك دليل عقلي أو لفظي يصرف اللفظ عن ظاهره.

ثانياً، أن يكون المعنى الجديد متناسباً مع المعنى الأصلي، ومع سياق الكلام العام.

وهنا يعقّب سماحته قائلاً: «فلا موقع للتأويل بدون هذين الشرطين لأن الاستعمال يكون خلطاً في القاعدة البلاغية».

انطلاقاً من كلّ ذلك رأينا العلّامة فضل الله، يحلّق بعيداً عن الأفكار السائدة والمألوفة مخالفاً الكثير من المشهور والموروث ولكن بسند قرآني «معصوم»، وبفهم لغوي بلاغي أصيل. غارساً بذرة «استئناف» فهم الفكر الإسلامي، من منبعه الأصيل، نافضاً عن «النص» التراكم التاريخي، مبعداً من طريقه محاولات الفهم الأخرى التي غيبته لصالح تجاربها الخاصة، التي باتت وكأنها هي الأصل، وباتت محاولات مخالفتها «هرطقة» تفتح أبواب «الجحيم البشري» على من يخالفها. فطالما كان العلّامة الراحل، يردّد القاعدة المأثورة «هم رجال ونحن رجال».

ونلاحظ أيضاً أن سماحته، ورغم مشاغله الكثيرة، كان دائم الاحتكاك بالناس، من خلال تخصيص أوقات محدّدة يستقبل فيها الجميع، بعيداً عن البروتوكول والتعقيد، فيعرضون عليه مشاكلهم، مهما كانت بسيطة، فكان بقلبه الكبير يستوعبهم ويُعينهم في مسائلهم. هذا الاحتكاك المباشر بالناس ولّد عنده نوعاً من «الفقه الواقعي» البعيد عن التجريد والمثالية والتحجّر. فالدين عند سماحته «حنفية سمحاء، ويُسر وليس عُسراً».

هذه الميزة أغنت الساحة بأسلوب جماهيري لديه ذو مقدرة على «تحويل المعاني المجردة إلى واقع حين مُعاش»، مفترقاً عن أساليب عدد من رجال الدين ينحون منحىً عرفانياً أو دينياً أو أدبياً محضاً.

ثالثاً، عندما سأله أحد الممرضين هل ارتاح، بعد أن ساعده في تعديل جسده، فكان جوابه، وهو على حافة العالم الآخر: «لن أرتاح حتى تتحرر فلسطين». وهذا نربطه بالفكرة السابقة عن ريادته للإسلام الحركي الثوري بعيداً عن زوايا العبادة المنعزلة، وأحكام الغيبيات التي لا تستند إلى دليل متين، والتي غدت «بيزنطيات» تدمغ الكثير من جدالاتنا التي لا طائل من ورائها. وذلك حوّله إلى هدف لقوى الاستعمار والاستكبار التي حاولت قتله مرات عدة.

كان لفلسطين بالذات في وجدان سماحته حضور لا يغيب، وكان غالباً ما يردّد أن «العرب يريدون التحرر من فلسطين ولا يريدون تحرير فلسطين» وهذا ما أثبتت الأيام، للأسف، واقعيته.

ذلك هو فضل الله.... صريع عقلية الاستعمار القاتلة التي حاولت قتله جسدياً وصريع عقلية التحجّر وتقديس القشور التاريخية التي حاولت قتل مشروعه الفكري الحضاري باسم الله. هي عقلية الإجرام السائدة اليوم التي تحارب في كل مكان إلا في فلسطين المحتلة. هي عقلية الركون والركود التي ترى النور ينطلق بها نحو المستقبل فتتمسك بظلامات الماضي.

* أسير محرّر وكاتب

الجانب المظلم في التاريخ: جاريد كوشنر مثالاً

عبد الله السناوي *

لا تمثّل الهوية الدينية لجاريد كوشنر عرّاب "صفقة القرن" مشكلة بحد ذاتها. المكان الذي يقف فيه هو المشكلة، الجانب المظلم في التاريخ. في التاريخ اليهودي أحداث ومآس، لا ذنب لنا فيها، دفع ثمنها نفياً للوجود الإنساني. جرى توظيف المأساة اليهودية قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها لإعادة رسم خرائط المنطقة وموازين القوى فيها تحكّماً في مصائرها على حساب شعب آخر، انتزعت أراضيه بقوة السلاح والتهجير القسري عام (1948) وبنيت على أنقاض حقوقه دولة عنصرية نفت وجوده الإنساني.

"صفقة القرن" تجلّ صريح لما أطلق عليه الرئيس الأميركي دونالد ترامب "سلام القوة" ـ هكذا بلا أدنى مساحيق تجميل سياسية. لا يتمتع كوشنر بأي سجل يؤهله لإدارة أكثر الأزمات الدولية تعقيدًا سوى مصاهرته للرئيس الأميركي ترامب، كأن البيت الأبيض من ضمن ممتلكاته الشخصية والعائلية، كما اعتقاده أن الوقت حان لإنهاء القضية الفلسطينية وفق أكثر الأفكار الصهيونية تشدداً، مقابل بعض الوعود الاقتصادية لتحسين مستويات المعيشة. وتلك نظرة عنصرية مفرطة، تفتقر إلى أية قيم إنسانية، أو أي صدى لأزمات الضمير.

لم تحل الهوية الدينية لألبرت أينشتاين، صاحب نظرية النسبية، من شعوره بأزمة ضمير بين تعاطفه مع أن يكون لليهود وطن لا يضطهدهم فيه أحد وبين ألا يضطهدوا هم أحدًا آخر، فعرب فلسطين لهم حق في الوطن الوحيد الذي يعرفونه ولا يستطيع أحد أن ينكره عليهم ـ كما نقل عنه عام (1952) الصحافي الشاب محمد حسنين هيكل.

أزمة الضمير نفسها عانتها شخصيات فكرية يهودية تعيش في الغرب، غير أنها طورت مواقفها من الحديث عن حقّين متعارضين إلى مناهضة الطبيعة العنصرية للمشروع الصهيوني؛ أبرزهم العالم الأميركي ناعوم تشومسكي. وقد ربطت صلات خاصة الصحافي الفرنسي اليهودي من أصل مصري إريك رولو بالزعيم الفلسطيني ياسر عرفات. بسبب ما كتبه رولو عن القضية الفلسطينية، تعرّض لحملات استهدفته من لوبيات صهيونية ترددت فيها عبارة: "اليهودي الوحيد الذي يؤيد عبد الناصر". في فبراير (2007)، أعلنت مؤسسة محمد حسنين هيكل عن استضافة الصحافي الأميركي سيمور هيرش لإلقاء ثلاث محاضرات عن "صحافة الاستقصاء"، أو "صحافة العمق"، وفي سجل الأخير خبطات صحافية نشرتها "نيويورك تايمز" و"نيويوركر"، كان آخرها في ذلك الوقت تحقيقًا موثقًا عن "الخطة السرية لوكالة الاستخبارات الأميركية للهجوم على إيران"، كما أفضت إحدى خبطاته إلى إطاحة وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد، وهو مجرم حرب بأي معنى إنساني أو قانوني. رغم ذلك كلّه، فقد كان اسم هيكل وحده كافيًا لإثارة حملة حول هيرش وديانته اليهودية. قبل أن يبدأ الضيف محاضرته عن احتمالات الحرب على إيران، تحدّث هيكل في كلمة مقتضبة ودالّة من فوق منصّة قاعة "إيوارت" بالجامعة الأميركية امتلأت بصحافيين كبار وسفراء غربيين وأكاديميين ووزراء سابقين وطلاب من الجامعة نفسها وقال: "فوجئنا بأبواب عديدة توصد أمامنا، وأنا لا أريد أن أشير إلى ما لا يلزم ـ ربما لا يستحق ـ الإشارة إليه، لكن من حق الجامعة الأميركية عليّ أن أقول إنها، وإن لم تكن مقصدنا الأول، أصبحت ـ مع إحساسها بمعنى الحق في المعرفة ـ ملجأنا الأخير (...) ومع أن قاعات مكتبة القاهرة مفتوحة لمناسبات كثيرة متعددة الاهتمامات، إلا أننا تلقينا ردًا بالاعتذار لسببين مختلفين. الأول، أن هناك مشكلة أمن... والثاني، أن سيمور هيرش يهودي (....) من المدهش أن تثار مثل هذه الإشارة المثقلة بمواريث الجانب المظلم في التاريخ غير العربي وغير الإسلامي دون تفرقة بين الديانة اليهودية والعدوانية الإسرائيلية، وخصوصًا بالنسبة إلى رجل مثل سيمور هيرش، وهو الذي كشف أمام العالم كله خبايا مشروع إسرائيل النووي وخفاياه، منبّهًا إلى حجمه وخطره، ولعلها من المفارقات أن تصدر مثل هذه الإشارة إلى ديانة سيمور هيرش هنا، في حين أنها نسيت مع أمثال مناحيم بيغن وشامير ورابين وديان وشارون وإيهود أولمرت". وأضاف: "لولا أن مسألة يهودية سيمور هيرش وصلت إليه لما أشرت إليها، لكني أذكرها هنا لكي أعتذر عنها لرجل وقف دائمًا بالحق في مواجهة القوة، ابتداءً من مذبحة ماي لاي في فيتنام، إلى مأساة سجن أبو غريب في العراق. لقد وقف سيمور هيرش كصحافي بالحق ضد القوة في بلاده، وكثير فيه داخل إلى الصميم في قضايا الشرق الأوسط".

كان ذلك تعبيرًا موجعًا عن فجوات وتناقضات ومآس في النظر إلى القضايا العربية، وفي الصمت على رموز التعصب الإسرائيلي، بينما الهجمات تنصبّ بلا عدل على من يقفون بجانبنا في الغرب لمجرد أنهم يهود. كانت أول جملة أطلقها هيرش من فوق منصة الجامعة الأميركية: "هذه المرة الأولى التي يذكر فيها اسمي مع بيغين وشامير"... فضجّت القاعة بخليط من الضحك والتصفيق.

لا أدري ماذا يمكن أن يقول هيرش إذا ما ذكر اسمه الآن مقترنًا برجل من مواصفات "كوشنر"؟ فيما روى يومها أنه لاحظ في كانون الأول / ديسمبر 2006 عند زيارة زعيم "حزب الله" حسن نصر الله تزايدًا في الإجراءات الأمنية حوله بالضاحية الجنوبية التي يقطنها، فبعدما كانت البوابات خشبية، أصبحت حديدية بعد قصفها بما يشبه ما حدث في الحرب العالمية الثانية. ثم تطرق إلى خطة نائب الرئيس الأميركي في ذلك الوقت ديك تشيني لـ"قطع رقبة إيران" وكان تقديره أن عدوانًا وشيكًا علي إيران قد يحدث في غضون الشهور القليلة المقبلة، كاشفًا أن 9 مليارات دولار من الأموال العراقية اختفت من أحد البنوك الأميركية لاستخدامها ضد إيران وسوريا و"حزب الله". هكذا كانت معلوماته وتوقعاته في التوقيت الذي تحدث به والتعقيدات التي شابتها، غير أن الوقائع ذهبت في اتجاه آخر.

لمرة تالية استضافت الجامعة الأميركية محاضرة أخرى في أيار/ مايو (2008)، موضوعها يتصل بالعمق مع ما طرحه سيمور هيرش. في تلك المحاضرة تحدّث ستيفن والت، الأستاذ بجامعة "هارفارد"، أحد مؤلفي كتاب "اللوبي الإسرائيلي في أميركا"، الذي أثار ضجة هائلة وقت صدوره، عن آليات عمله وأسباب قوته وتداعيات نفوذه على السياسات الأميركية في الشرق الأوسط.

كلاهما هيرش ووالت، بغضّ النظر عن الانتماءات الدينية، يدافعان عن المصالح الأميركية ويخشيان عليها من تبعات الانحياز المفرط لإسرائيل. فيما قاله والت: "إن اللوبي الإسرائيلي قادر على تغيير السياسات الأميركية، وأنه قد نجح في تطويع كل من تولى منصبًا في الإدارة الأميركية، أو حظي بعضوية الكونغرس، بقوة الدعم المالي المباشر، حتى وصل في حالة منظمة إيباك وحدها إلى نحو 55 مليار دولار سنويًا، بينما مجموع ما تنفقه المجموعات العربية لا يتجاوز الـ 800 ألف دولار (...) القضية ليست مؤامرة بقدر ما هي تعبير عن مجموعة من المصالح التي يسعى اللوبي الإسرائيلي إلى تحقيقها في التأثير على السياسة الأميركية في الشرق الأوسط".

الكلام في مجمله صحيح وموثّق، غير أنه يختلف عما يقوم به جاريد كوشنر الآن من أدوار. إذ لا نتحدث عن لوبي يضغط ويؤثر بقدر ما نتحدث عن مركز صنع القرار في البيت الأبيض الذي تتحكم فيه تصورات وأفكار أكثر تشددًا من "اللوبي الإسرائيلي" نفسه.

*** كاتب مصري**